الإنساني 25

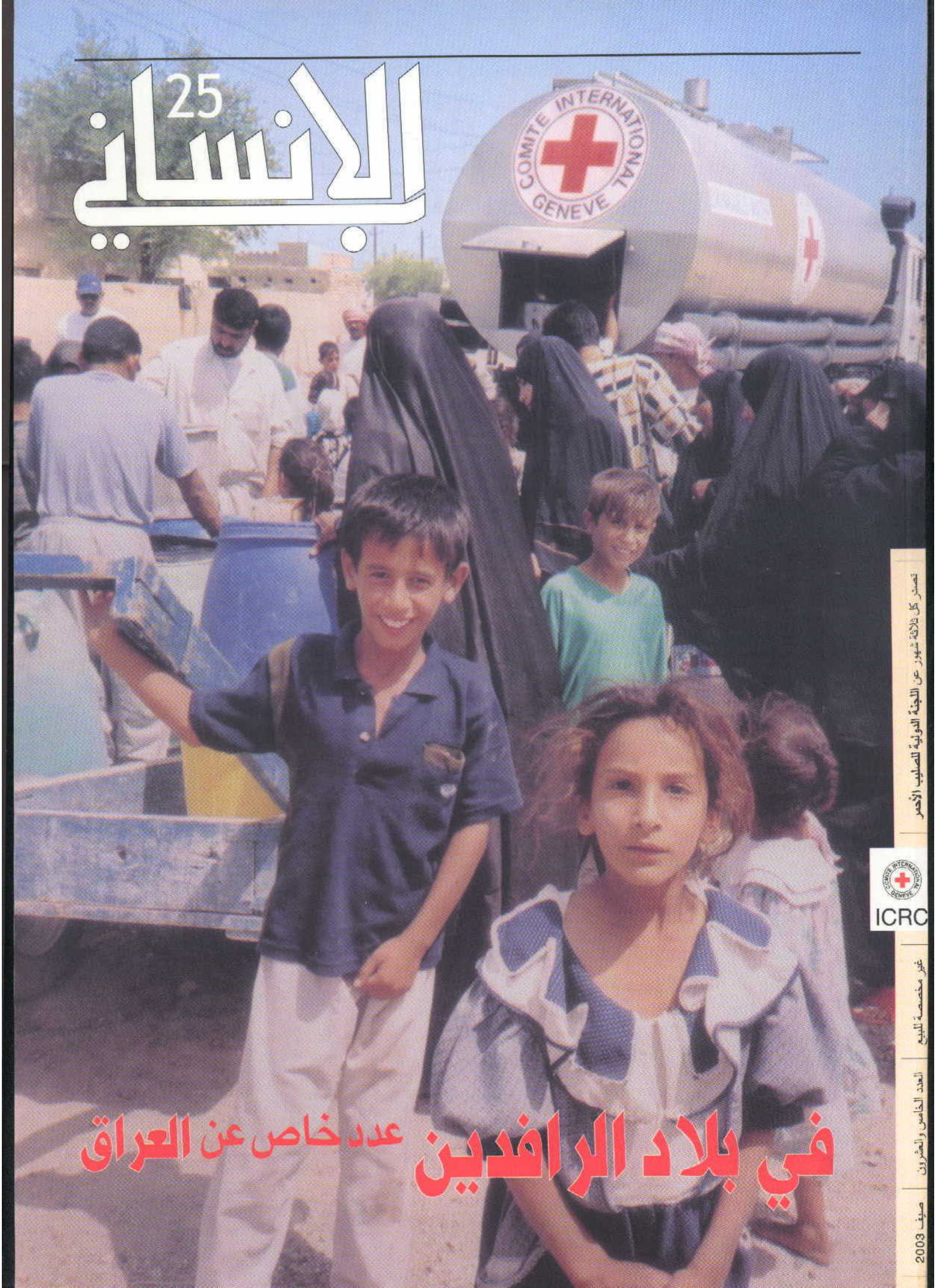

في بلاد الرافدين عدد خاص عن العراق

تصدر كل ثلاثة شهور عن اللجنة الدولية للصليب الأحمر
ICRC
غير مخصصة للبيع
العدد الخامس والعشرون
صيف 2003

•••• الأم بينما كانت تحتضن أبناء ميسون الذين لم ترهم من قبل.

مفقود منذ حرب 1967

يبلغ محمود الآن الخامسة والستين من العمر تقريبًا. كان يبدو متعبًا ونحيلاً عندما وصل إلى مخيم اللاجئين في الرويشد، فارًا من الحرب في العراق. إن مسقط رأس محمود هو قطاع غزة. وكان مقاتلاً خلال حرب عام 1967 ونجح في الفرار أثناء محاولة إلقاء القبض عليه، وأخيرًا انتهى به الأمر إلى العراق. ومنذ ذلك الحين، فقد محمود الاتصالات كافة مع أفراد عائلته في غزة. وترك خلفه زوجة، وطفلة تبلغ عامين من العمر، ووالدته ووالده وأخواته.

بعد سنوات طويلة من البحث، فقدت عائلته الأمل في معرفة مكانه وخلصت إلى أن محمودا قد بات من المؤكد أنه توفي خلال حرب عام 1967. وفي العراق، كان محمود يعيش حياة عادية ولكنه لم ينجح في إجراء أي اتصال مع أفراد عائلته في غزة. وبالتالي، لم يكن معه أي جواز سفر أو وثائق سفر وانتهى به الأمر إلى مخيم اللاجئين في الرويشد إلى جانب مئات الفلسطينيين الذين فروا من الحرب. خلال تحدثه مع فرق اللجنة الدولية للصليب الأحمر للبحث عن المفقودين في مخيم اللاجئين، ذكر محمود عرضًا أنه كان هناك أفراد من عائلته في غزة. ولكنه لم يتذكر أي عنوان ولم يأخذ الأمر مأخذ الجد عندما وعد الموظف المعني بالبحث عن المفقودين بأنه سيحاول أن يتصل بأفراد عائلته في غزة.

"لقد توفي محمود منذ 36 عامًا. قُتل في الحرب"، كان هذا هو رد ابن عم محمود في غزة عندما اتصلت به إدارة البحث عن المفقودين التابعة للجنة الدولية للصليب الأحمر. "كلا، محمود ليس بميت... إنه حي في مخيم للاجئين"، كان هذا هو رد الموظف التابع لإدارة البحث عن المفقودين. "أي من مخيمات اللاجئين؟، أين...؟" وكان على الموظف أن يجيب عن وابل من الأسئلة من ابن عم محمود الذي كان ممزقًا ما بين الشك والرغبة في تصديق أن محمودا مازال حيًا.

بعد ذلك بقليل، اختفت الشكوك عندما تمكن محمود من الاتصال هاتفيًا بابن عمه في غزة من خلال الهاتف المتصل بالأقمار الاصطناعية الذي توفره اللجنة الدولية للصليب الأحمر من أجل تسهيل استعادة الروابط العائلية في مخيم اللاجئين بالقرب من الحدود بين الأردن والعراق ■

الصورة الفوتوغرافية: ل. د. ص.

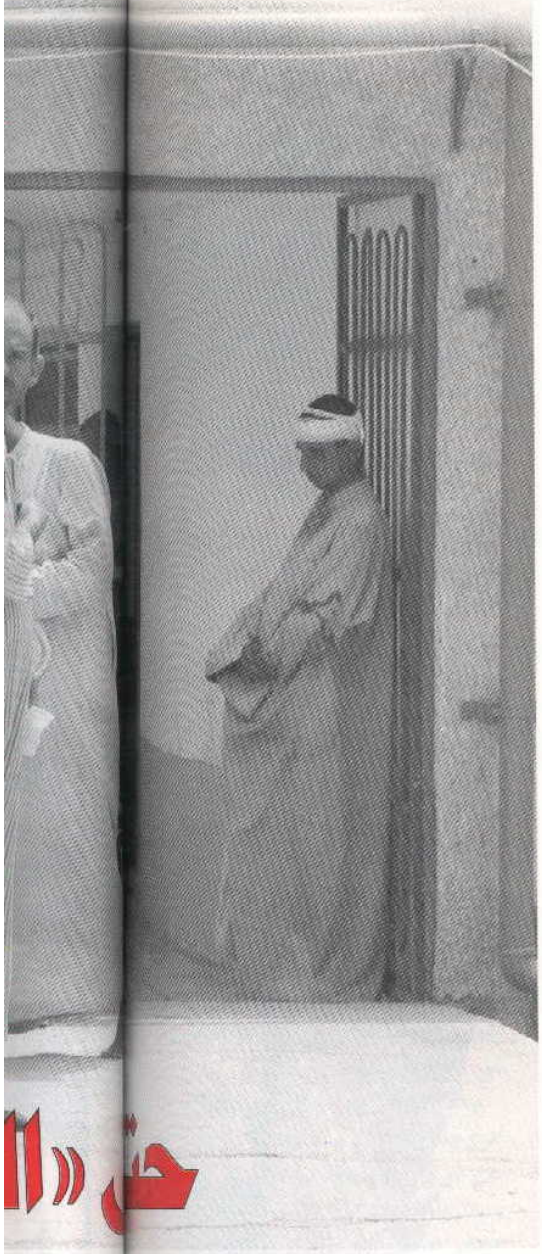

الصورة الفوتوغرافية: ل. د. ص.

مستشفى الرشاد: مرضى يتعرضون للعنف وأطباء بلا رواتب

برنامج شامل لإعادة تأهيل مستشفى الأمراض النفسية الوحيد في العراق

حـ «الشماعية» لم تسلم من التخريب!

في زيارته للعراق، بعد انتهاء الحرب بأيام قليلة، كان **جاكوب كلينبرجر** رئيس اللجنة الدولية حريصا بالدرجة الأولى على زيارة محطات المياه ومستشفى الرشاد التعليمي للصحة النفسية أو ما يطلق عليه العراقيون "**مستشفى الشماعية**". ويكتسب برنامج الطب النفسي أهمية متميزة من بين نشاطات بعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر بالعراق لما يشكله من إسهام في التصدي للآثار الناجمة عن الحالة النفسية للمرضى النفسيين في ظل المعاناة التي أفرزها الحصار ومن بعده الحرب التي عانوا من

تحقيق: **أحمد خالد الراوي***

نتائجها المُرة. وقد خرج رئيس اللجنة الدولية من زيارة المستشفى وهو في غاية الأسف والألم والإحباط جراء ما أصاب المستشفى والمصير المجهول للمرضى الذين شردوا وألقي بهم خارج المستشفى طوال فترة الحرب دون رعاية صحية أو غذائية وتحولوا إلى متسولين في الشوارع والميادين والمراقد المقدسة.

ففي اللحظات الأولى لدخول قوات التحالف بغداد وغياب السلطات الأمنية والحكومية، اندفع اللصوص الذين نهبوا كل شيء في العراق إلى أسوار وأبواب المستشفى ودمروا ونهبوا كل شيء فيها وأطلقوا سراح جميع المرضى، ولم يتركوا إلا الجدران والعنابر مدمرة ومحترقة.

قصة المستشفى

يروي **أولاف روسيت** مسؤول برنامج الطب النفسي ببعثة اللجنة الدولية قصة المستشفى ••••

(*) مسؤول إعلامي ببعثة اللجنة الدولية ببغداد

●●●● ودور اللجنة الدولية في إعادة تأهيلها ضمن برنامج إعادة تأهيل المستشفيات العراقية أثناء الحصار فيقول: إن إعادة تأهيل المستشفى كانت أمرا ضروريا جدا لكن الأهم هو تأكيد الطابع الإنساني لنهجها في العلاج، وتطويره لكي يعامل المريض باحترام على أساس أنه إنسان. وقد ازداد شعور المرضى بهذا الشيء بعد أن بدأ عمل اللجنة الدولية للصليب الأحمر في إعادة تأهيل المستشفى، وأعتقد أن هذا الأمر هو الإنجاز الأكبر للصليب الأحمر في مستشفى الرشاد، حيث مكنا كل المرضى من العيش في مناخ نفسي يساعدهم كثيرا على التقدم في العلاج والتكيف معه، فقد جهزنا قاعات كثيرة لمشاهدة التليفزيون، وكذلك أجهزة الكاسيت والفيديو كاسيت، ووفرنا لهم عددا من الأشرطة العربية الحديثة وكانوا يحبونها كثيرا حتى أن بعضهم كان يرقص لها. كما تم تزويد المستشفى بطاولات لعبة المنضدة وشبكات كرة الطائرة وكرة السلة وأدوات الأنشطة الرياضية الأخرى.

المشروع

وقد بدأ العمل في مشروع إعادة تأهيل المستشفى في شهر مارس/ آذار عام 2000، حيث كانت الأشهر الأولى مقتصرة على التخطيط، ولكن العمل الفعلي بدأ في شهر أغسطس/ آب من العام نفسه، واتضحت فكرة العمل بعد زيارات قام بها منسقو القسم للمستشفى ومشاهدتهم لأوضاع المرضى، لقد كان السبب المباشر لتردي الحالة الصحية للمرضى هو الحصار الذي مر العراق به لسنوات طويلة والذي نتج عنه نقص في الدواء والأدوات الاحتياطية وأعطال كثيرة في نظام التصريف الصحي وفقدان الآدمية.

وقد كان التركيز على مستشفى "الرشاد" لأنه يعد المستشفى الوحيد المتخصص في الأمراض النفسية والعقلية المزمنة وحيث تجد أكثر الاشخاص تضررا ومن هم بحاجة إلى دعم متواصل لا يقل عن سنة كاملة من الرعاية. يقول **أولاف روسيت**: "كنا قبل الحرب ندعم مستشفى الرشاد بواسطة إمداده بالمجلات والدوريات العلمية المتخصصة بالإضافة إلى إمداد كلية التمريض/ قسم التمريض النفسي بنفس المطبوعات إلى جانب إعمار المستشفى الذي قام به قسم الماء والإصحاح باللجنة الدولية، وأقمنا سبع ورش عمل للمرضى لتعليمهم مهارات الخياطة والتطريز وعمل القلائد والأساور، والفكرة هي إشغال المرضى بالعمل وهي خطوة مهمة لإعادة تأهيل المرضى الذين ليس لهم أي عمل. وبالإضافة إلى إعادة تأهيل المستشفى حاولنا أن نضع برنامجا أكاديميا لتقديم مساهمات دراسية للأطباء العراقيين المختصين بالطب النفسي للاطلاع على مؤسسات الطب النفسي في أوروبا وفي الأخص في النرويج لأن بها مستوى أكاديميًا راقيًا في هذا التخصص، ويمكن اعتبارها نوعا من البرامج التدريبية التي يتخللها القاء المحاضرات والبقاء في مستشفيات العلاج النفسي ومناقشة القضايا التخصصية مع الزملاء الآخرين، لكن هذه الجهود جميعها تعرضت للإحباط مع بداية احتلال بغداد وتدمير المستشفى وسرقته وتجريده من كل إمكانياته، فحتى صنابير المياه لم يتركوها!!

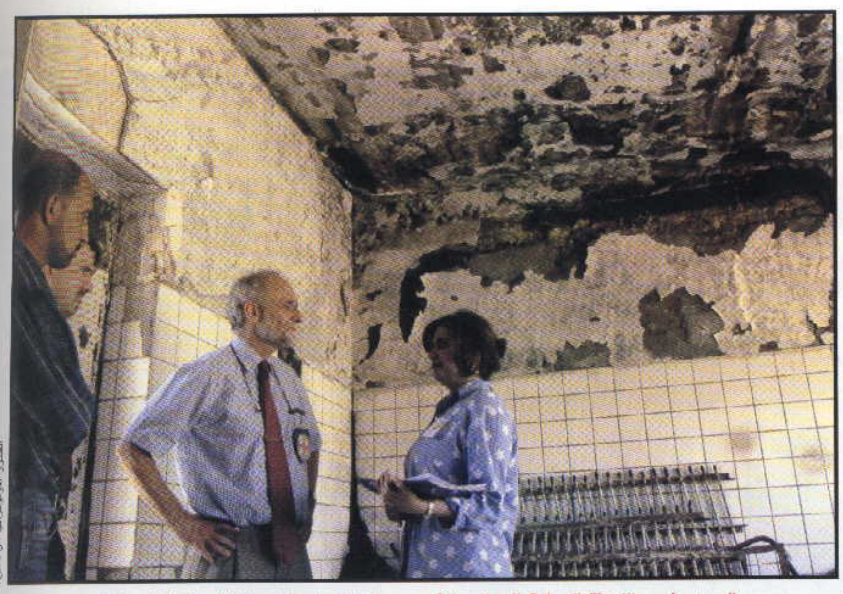

السيد رئيس اللجنة الدولية للصليب الأحمر يعاين الدمار في مستشفى الرشاد ببغداد

تم نهب أثاث ومعدات المستشفى وحُطمت الأسرّة

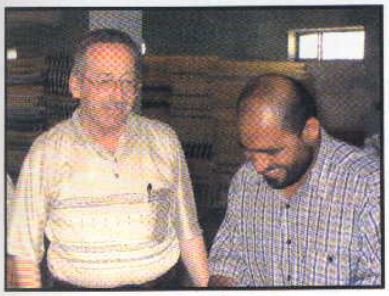

الدكتور أمير عبّو هبلو مدير المستشفى

أولاف روسيت المندوب الدائم بالمستشفى

نهب لكل شيء وموتى من العطش

تقول **سلوى صالح**، وهي معالجة نفسية تابعة لبعثة اللجنة الدولية للصليب الأحمر في بغداد، أن بعض المرضى ممن بقوا بالمستشفى أثناء الفوضى لقى حتفه من العطش لعدم وجود ماء وتوقف كل الإمدادات اللازمة للحياة عن المستشفى لأسابيع. لذلك قامت اللجنة الدولية بعد انتهاء الحرب بتوفير عدد من طلمبات المياه اليدوية وقامت بتدريب المرضى على استخدامها، تحسبا لظروف مماثلة، اعتمادا على أنفسهم لحين وصول المساعدات، كما تقوم بتشجير وتوسيع العنابر إيمانا بأن المرضى يجب أن ينطلقوا طوال اليوم خارج الحجرات والعنابر المظلمة، وأن تكون حرية التجول في الأماكن

الخضراء مكفولة لأنها تساعد كثيرا على استقرار الحالة النفسية خاصة مع المرضى المزمن.

ويضيف الدكتور **أمير عبّو هبلو** مدير المستشفى، في أسف بالغ: "**لقد نهبوا كل شيء ولم يتركوا أي شيء حتى مفاتيح الكهرباء وأسلاك الكهرباء والتليفونات والأدوية... كل شيء، كل شيء**"!!

ماساة مروعة

ومأساة مستشفى الرشاد النفسي بدأت قصتها بعدما اجتاحت القوات الأمريكية سور المستشفى لتمر من خلاله تاركة وراءها المرضى بدون حراس أو أشخاص يرعاهم. حيث سرقت محتويات المستشفى كافة وبضمنها الأعمال اليدوية والفنية التي أنجزها لمرضى المستشفى في الستينيات والسبعينيات من القرن الماضي. وطرد السراق معظم المرضى المتواجدين. لقد فتحوا الأبواب كما يقول مدير المستشفى، وأطلقوا المرضى البالغ عددهم حينذاك 1020 مريضاً لم يعد منهم إلى الآن سوى 500 مريض أي أن هناك حوالي 520 مريضاً يعانون من أمراض نفسية مزمنة يتجولون في شوارع بغداد، من بينهم 117 كانوا قيد الاحتجاز في قضايا أمنية خطيرة تصل إلى القتل مما يشكل خطرا كبيرا على الاستقرار والهدوء. أما الذين عادوا فقد تم استرجاعهم بواسطة أسرهم وبعض الأهالي الذين وجدوا جزءا كبيرا منهم بجوار المراقد المقدسة وفي الميادين.

إن بعض المرضى ممن لم يرجعوا الى الآن إلى المستشفى يخشون على أنفسهم بعد الذي شاهدوه من أعمال حرق وتخريب. ويبدو أن بعضا منهم مازال لديه انطباع سيئ عما حدث إلى درجة أن أحد المرضى شبه السراق بأنهم "مثل القراصنة"

من بين القصص المؤلمة التي حدثت هي تعرض حوالي عشر مريضات أبكار إلى الاغتصاب على أيدي السراق، بعضهن الآن حوامل بأطفال لا تعرف هوية والدهم. وقد سببت عمليات الاغتصاب مشاكل نفسية مضاعفة لدى المريضات من بينها حالات الاكتئاب الشديدة. وتوفيت إحدى المريضات بعدما اضطرت إلى ترك المستشفى بسبب السراق حيث تعرضت إلى إطلاق ناري في الشارع أصاب رأسها.

أكثر من نصف قرن

وقد تأسس مستشفى الرشاد عام 1950 ومن وقتها وهو يستقبل المرضى من كافة أنحاء القطر. كما أنه يعمل كمركز استشاري وحيد في البلاد للبت في القضايا وحالات المتهمين جنائيا من الناحية النفسية. ورغم أن أطباء المستشفى يعملون الآن بدون مقابل اللهم إلا 20 دولارا تم صرفها منذ فترة، فهم لم يغيبوا عنه إلا يومين فقط من جراء الأعمال العدوانية والنهب، ثم عادوا جميعا إلى العمل، وهم يؤكدون أنهم سيعملون جميعا مع اللجنة الدولية للصليب الأحمر والمنظمات الدولية الأخرى مثل منظمة الإغاثة الإسلامية ومجلس الكنائس العالمي والصليب الأحمر النرويجي على إعادة بناء وتأهيل المستشفى والكوادر من جديد، إلا أن الدور الأكبر كما هو متوقع سيكون للجنة الدولية التي يتواجد مندوبها الدائم السيد **أولاف** بالمستشفى بصورة يومية، ويقوم بتسجيل الاحتياجات ويعمل مع بعثة اللجنة الدولية على توفيرها سريعا.

إبداعات المرضى

من بين أهم الفعاليات الفنية التي أنجزها المرضى قبل الحرب الأخيرة على العراق هي قيامهم بتمثيل مسرحية اسمها **الغريب**، قام بكتابتها أحد الممرضين وهو **كريم كاطع** وشارك في المسرحية ثلاثة عشر مريضا، حيث قام ببطولتها **ضياء محسن** مجسداً شخصية **أحمد**. تركز المسرحية على الحياة الصعبة لأحمد الذي كان طفلا لأم دائمة الخصام مع زوجها، الأمر الذي أدى إلى طلاقهما. تبدأ معاناة أحمد بعد زواج أمه من رجل غريب اعتاد على إهانته وإيذائه. اضطر **أحمد** إلى اللجوء إلى الشارع بعدما طرده زوج أمه. وهنا بدأت آلامه الفعلية مع الناس والأطفال الذين اعتادوا على نعته بالمجنون. يتدخل القدر ليشاهد أحد رجال الشرطة **أحمد** وهو ملقى على الرصيف بملابسه القذرة والرثة وطعامه الملقى قرب النفايات. يقود رجل الشرطة **أحمد** إلى مستشفى الرشاد الذي بدوره يؤهله نفسيا ليصبح إنسانا سويا كأقرانه. تخلل العرض مشاهد لأحد الشعراء السكارى وهو الشاعر **صباح العزاوي**، أحد نزلاء المستشفى، الذي ألقى شعراً عامياً وكلاماً موزونا فيه الكثير من السخرية الفطنة والانتقاد ●●●●

تأهيل بعض نزيلات مستشفى الرشاد وتدريبهن على الحياكة واكتساب المهارات اليدوية

حتى «الشماعية» لم تسلم من التخريب!

السياسي.

تعد المسرحية تجسيدا لواقع الطفولة ولمعاناة الأطفال الذين لاحول لهم ولاقوة. وفي نفس الوقت تعكس وقائع جنوح الأحداث والضغوط النفسية التي يتعرضون لها إذا ما لجأوا إلى الشارع الذي سيقودهم إما إلى الجريمة أو إلى الاختلال العقلي. يعد تهيئة مثل هذا النشاط مفيدا جدا للمرضى، كما تحدثت به الباحثة الاجتماعية **هيفاء سلمان محمد**: "فكرة تمثيل المسرحية مهمة جدا للمرضى حيث تعد فترة التدريب بالغة التأثير في التأقلم الإجماعي بين المرضى من الرجال والنساء، يفتح باب المناقشة لكي يعبر فيه المرضى عن آرائهم بجرأة وبحرية. ونحن كباحثين ينصب اهتمامنا في هذه الأمور التي تعكس طبيعة تفكير المريض ومن ثم نستدل على الطريقة المثلى لعلاجه. وفي نفس الوقت، أعادت المسرحية الثقة بالنفس للكثير من المرضى وهذا هو هدف التأهيل النفسي للمريض".

شعراء وممثلون وذوو مهارات خاصة

وهناك الكثير من المرضى الذين لهم قدرات خاصة ومهارات تفوق أحيانا الناس "الأسوياء". على سبيل المثال، **هاكوب أرمين**، وهو أحد المرضى المتواجدين في المستشفى منذ سنة 1998. يجيد هذا الرجل اللغة الإنكليزية التي يتحدثها بطلاقة خاصة وأنه خريج جامعة بيرس في كاليفورنيا في الولايات المتحدة الأمريكية. ويعمل الآن مترجما للجنود الأمريكان المتواجدين في باب المستشفى، حيث يسهل عمل الكثير من المراجعين وأهالي المرضى. وقد كان يدرّس الممرضات اللغة الإنكليزية وهو فرح جدا بعمله هذا وخاصة أنه يجد نفسه ذا فائدة للناس الآخرين. تضرر **هاكوب** كثيرا من جراء النهب الذي حدث في المستشفى، الأمر الذي جعله يهرب إلى بيت أهله الذي لم يجد فيه أحدا، نظرا إلى سفرهم إلى مكان آمن في الحرب، مما حدا به أن يرجع إلى المستشفى مرغما. لكنه استطاع الصمود والبقاء إلى أن رجع المستشفى إلى سابق عهده.

أما الممثل البارع **ضياء محسن** الذي لعب دور البطولة في مسرحية **الغريب**، فله قصة أخرى. هذا المريض متخرج من معهد التكنولوجيا فرع الميكانيك، وكان من القلائل الذين بقوا أثناء وبعد عمليات السلب والنهب. وهو يتذكر كيف سرقوا حتى طعامه البسيط ولم يتركوا شيئا لأحد، حيث عاث الغوغاء في المستشفى إلى درجة أنهم أخذوا يكسرون الأغراض التي لا يستطيعون حملها معهم. بالرغم من هول ما شاهده، مازال **ضياء** متفائلاً وفرحاً خاصة وهو يخطط حاليا لعمل مسرحية أخرى تبين وتفضح أعمال السرقة والتخريب التي حدثت للمستشفى.

عبد الكريم رشيد أو "**كريم كوبرا**" كما يحلو للبعض تسميته، يكتب الشعر المنثور ويطرز ويرسم ويصنع الآن وسائد للجنود الأمريكان مكتوب عليها عبارات حسب الطلب. وقد عانى هذا المريض من فظائع السرقات وهو يعتقد بأنه لو كان هناك شرطي واحد لاستطاع أن يحمي المستشفى بأكمله.

جدران عالية لا تصمد أمام العنف

والمتجول في عنابر المستشفى يجد المرضى منتشرين في الطرقات والعنابر، البعض منهم في حالة ذهول دائم والبعض الآخر في حالة نشاط وحركة يقترب منه راجيا طلبا أو لمجرد الحديث، والبعض منهم يقف بعيدا متأملا تلك الوجوه الغريبة، ولكن المؤكد أن جميعهم لا يدركون ما حاق بالعراق، وأن صراعا إنسانيا بين ما كان بالأمس وما سيكون في الغد قد أثر على وضعهم العلاجي والصحي... فإن كانت الحرب قد شردتهم في الشوارع وحرمتهم من الغذاء والعلاج لأسابيع فإن الغد أيضا يخفي الكثير إما استمراراً لحالة الضياع والحرمان وإما أملاً بعيشة آدمية تحفظ لهم ما تبقى من آيامهم خلف تلك الجدران العالية التي لم تحفظهم يوما من هجمة بربرية ■